مشكل القرآن في العقيدة والإجابة عنـــه

د/ عبده عبد الله الحميدي
أستاذ التفسير المساعد ـ كلية الآداب ـ جامعة إب

ملخص البحث

لقد تناولت فيه أهم النصوص في القرآن المشكل فهمها في العقيدة والتي احتدم النزاع فيها بين المتكلمين في معاني الأسماء والصفات على النحو التالي:

أولاً/ ما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته العليا وقد استعرضت فيه أقوال المتكلمين في الأسماء والصفات ثم رجحت من أقوالهم ما ظهر لي أنه أسلم لعقيدة المسلم ودينه وأبعد له عن مزالق الأقدام.

ثانياً/ ما يتعلق بعالم الآخرة مما ظاهره أن عذاب الكفار منقطع وأن أهل الجنة سيخرجون منها لا يخلدون، وقد ذكرنا أقوال العلماء في ذلك في الإجابة عن هذا الإشكال ورجحنا ما ظهر أنه الأصوب من تلك الإجابات.

ثالثاً/ ما يتعلق بالملائكة الكرام من اعتقاد عصمتهم عن الزلات وتنزيههم مما ألصقه بهم كثير من القصاص بحيث كان ذلك قادحاً في عصمتهم من الذنوب والمخالفات التي لا تليق بأسوأ البشر فضلاً عن الملائكة الكرام عليهم السلام.

رابعاً/ ما يتعلق بحق بعض الأنبياء والرسل عليهم السلام مما يجب اعتقاده في حقهم أو يجوز أو يستحيل، بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بخاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

خامساً/ بيان الآيات التي يخالف ظاهرها مذهب أهل السنة والجماعة وقد بينت معناها الذي ينسجم مع مذهبهم بطريقة جلية واضحة واخترته من بين سائر الأقوال في معانيها.

سادساً/ ما يتعلق بأفعال العباد مما ظاهره التعارض، والجمع بين تلك النصوص المتعارضة.

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل كتابه المنهج السديد لشرائع الإسلام وشعائره وعقائد الإيمان بالتوحيد وجعل السعادة في الدنيا والأخرى لمن اتبعه وجعل الذلة والشقاء لمن أعرضه، والصلاة والسلام على من أرسله الله على حين غفلة من الرسالات وأنزل كتابه عليه ليبين للناس ما نزل

إليهم ويهديهم إلى الطريق في كل أنواع العبادات والمعاملات وعلى آله وصحبه الراشدين والتابعين لهم إلى يوم الدين .

أما بعد فإنني كلما قرأت القرآن وجدت فيه آيات تتعلق بعقيدة الإيمان منها ما يتعلق بصفات الله تعالى ومنها ما يتعلق بما يجب اعتقاده في حق الملائكة الكرام ومنها ما يتعلق بحق الأنبياء والرسل ومنها ما يتعلق ببعض ما استقرت عليه عقيدة أهل السنة والجماعة من المؤمنين، ولكن هذه الآيات ظاهرها يتنافى مع ما يليق بجلال الله تعالى وعصمة الملائكة والأنبياء والرسل أو ما تقرر من السمعيات المتعلقة باليوم الآخر.

فأحببت أن أفرد هذه الآيات بالبحث حتى يفهم من اطلع عليه المعنى السليم لهذه الآيات الموافقة لمذهب أهل السنة والجماعة حتى لا يبقى في حيرة التردد بين الأقوال الكثيرة المختلفة حول معانيها، وربما يقع في مزلة الأقدام من التأويل المؤدي إلى التعطيل أو الإثبات المؤدي إلى التجسيم أو التمثيل وكلاهما خارج عن منهج القرآن القائل: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورى آية ١١

علماً أنني لم أذكر إلا ما عظم فيه الإشكال فكان في الفهم صعب المنال، أما ما إشكاله لا يحتاج إلى إعمال فكر كبير بل يفهم بأدنى تأمل وتفكير فلم أذكره ، والله الموفق ومنه التسديد.

خطة البحث

أولاً: البحث في الآيات التي ظاهرها غير لائق بجلال الله تبارك وتعالى.

ثانياً: البحث في الآيات التي يتعارض ظاهرها مع عصمة الملائكة الكرام.

ثالثاً: البحث في الآيات التي يتعارض ظاهرها مع عصمة الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: البحث في الآيات التي يفهم منها خلاف عقيدة أهل السنة في القضاء والقدر.

خامساً: البحث في الآيات التي ظاهرها يخالف نصوصاً أخرى مما يتعلق باليوم الآخر.

منهجي في البحث

اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي ، حيث قام بذكر الأدلة من الكتاب والسنة ، ثم رصد الأقوال التي أوردها العلماء في كتب التفسير والحديث والقصيدة ، مرجحاً القول الذي يتفق وعقيدة أهل السنة والجماعة .

مشكل القرآن في حق الله :

قوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) النساء ١٤٢

وجه الإشكال في العقيدة هو أن الخديعة مذمومة لأنها إظهار ما يوهم السداد والسلامة وإبطال ما يقتضي الإضرار بالغير أو التخلص منه . فهي بمنزلة النفاق في الكفر والرياء في الأفعال الحسية وهي بهذا المعنى غير جائزة في حق الله ولا تصح لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يخدع والحليم الحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يخدع غيره .[1]

وصيغة المفاعلة تقتضي المشاركة في الخداع بين المنافقين وبين الله تعالى ، وقد أجيب عن هذا الإشكال بعدة أجوبه :

الجواب الأول/ إن مخادعتهم هو إفساد ما يظهرون من الإيمان بما يضمرون من الكفر وأن خداع الله لهم أنه أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم في الدنيا وهم عنده في الدرك الأسفل من النار .[2]

وأنه يفسد عليهم نعيمهم في الدنيا بما يصيرهم إليه من عذاب الآخرة .[3]

الجواب الثاني/ أنه من باب الاستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم في معاملتهم لله بحال المخادع مع صاحبه من حيث القبيح ، ثم استعير المشبه به للمشبه ثم اشتق منه الفعل المضارع (يخادعون) على طريق الاستعارة التبعية التصريحية التمثيلية وسميت تمثيلية لأن وجه الشبة فيها منتزع من هيئة متعددة فيخادعون بمعنى يعاملون [4]

الجواب الثالث/ أن هذا من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية وأصل التركيب يخادعون رسول الله [5] بما أظهروه من الإيمان وأخفوه من الكفر .

الجواب الرابع/ أن معناه يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم والتعبير كان عن ظنهم لحقن دمائهم وأموالهم ويظنون أنهم قد نجوا أو خدعوا .

فا المفاعلة ليست على بابها بل الخداع واقع من جهة المنافقين فقط وهذا كقولك عاقبت اللص وطابقت النعل والمعاقبة والمطابقة واقعتان من جهة الفاعل فقط وليس من جهة المفعول إذ لا تتصور معاقبة من جهة اللص ولا من جهة النعل وكلها إجابات سديدة وأنجعها الأول الذي جعل المخادعة من الجهتين ولكن حسبما يليق بكل منهما فلم يكن معناها واحداً من كلا الطرفين والله أعلم [6]

الإشكال الثاني : في قوله تعالى (الله يستهزئ بهم) البقرة آية ١٥

ووجه الإشكال كيف وصف الله سبحانه وتعالى بأنه يستهزئ وقد ثبت أن الاستهزاء من باب العبث والسخرية وذلك قبيح على الله تعالى ومنزه عنه ، وهناك عدة إجابات عن هذا الإشكال :

الجواب الأول/ حمل أهل الحديث و طائفة من أهل التأويل الاستهزاء منه تعالى على حقيقته وإن لم يكن المستهزئ من أسمائه تعالى وقالوا أنه التحقير على وجه من شأنه أن من اطلع عليه يتعجب منه ويضحك ولا استحالة في وقوع ذلك منه عز شأنه .[7]

إن معناه ما ذكره الله تعالى في سورة الحديد في قوله (قيل ارجعوا ورآئكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) الحديد آية ١٣

الجواب الثاني / أن الاستهزاء هو معاملتهم معاملة المستهزئ وهو أن يستدرجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم فالله تعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ويستر عنهم من عذاب الآخرة فيظنون أنه راضٍ عنهم وهو تعالى قد حتّم عذابهم فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء ومكر وخداع ودل على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا رأيتم الله تعالى يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصية

فإنما هو استدراج) ثم نزع بهذه الآية (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذي ظلموا والحمد لله رب العالمين) [8]

الجواب الثالث / أن استهزاءه بهم كالذي أخبرنا تبارك وتعالى أنه فاعل بهم يوم القيامة في قوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورآءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى) [9]

وكقوله تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) فهذا وما وأشبهه من استهزاء الله عز وجل وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائلي هذا القول ومتأولي هذا ا لتأويل .

الجواب الرابع / إن استهزاء الله بهم هو توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصي الله والكفر به كما يقال إن فلاناً ليهزأ منه منذ اليوم ويسخر منه يراد به توبيخ الناس إياه ولومهم له ، أو إهلاكه إياهم وتدميره بهم كمال قال عبيد بن الأبرص :

سائل بنا حجر ابن أم قطام إذ ظلت به السمر النواهل تلعب

فزعموا أن السمر وهو القنا لا لعب منها ولكنها لما قتلتهم وشردتهم جعل ذلك من فعلها لعباً بمن فعلت ذلك به قالوا : فلذلك استهزاء الله جل ثناؤه بمن استهزأ به من أهل النفاق والكفر به إما إهلاكه إياهم وتدميره بهم [10].

وأما إملاؤه لهم ليأخذهم في حال أمنهم عند أنفسهم بغتة أو توبيخه لهم ولائمته إياهم قالوا وكذلك معنى المكر أو الخديعة والسخرية .

الجواب الخامس/ أن قوله تعالى: (الله يستهزئ بهم) إخبار من الله أنه مجاز بهم جزاء الاستهزاء ومعاقبتهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان كما قال جل ثناؤه (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ومعلوم أن الأولى من صاحبها سيئة إذ كانت منه لله تعالى معصية ، وأن الأخرى عدل لأنها من الله جزاء المعاصي على المعصية فهما وإن اتفق لفظاهما مختلفا المعنى وهذا ما يسمى بالمشاكله في علم البديع كما قال السيوطي في نظمه عقود الجمان :

ومنه ما يدعونه المشاكله أن يذكر الشيئ بلفظ ليس له

لكونه صحبته تحقيقا أو مقدراً ومكر الله رأوا

وقوله قالوا اقترح شيئاً نجد قلت اطبخوا لي جبة بيت عهد [11]

الجواب السابع / أن معنى قولهم : (إنما نحن مستهزؤن) يعنون أننا نظهر لهم ما هو عند باطل لاحق ولا هدى قالوا وذلك معنى من معاني الاستهزاء ، فأخبر الله أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، وحيث إنّ معنى الاستهزاء في كلام العرب إظهار المستهزئ للمستهزئ به

من القول والفعل ما يرضيه ويوافقه ظاهراً وهو بذلك من قبله مورثه مساءة باطناً . فهذا الجواب هو الصواب[12].

وهو من باب الاستدراج بدرور النعم الدنيوية عليهم فيظهر لهم من الإحسان في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ويستر عنهم من عذاب الآخرة فيظنون أنه راضٍ عنهم وهو تعالى قد حتّم عذابهم .[13]

قوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) آل عمران آية ٥٤

وقوله تعالى (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) الأعراف آية ٩٩

وقوله تعالى (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) الأنفال آية ٣٠

وقوله تعالى (قل الله أسرع مكراً) يونس آية ٢١

وقوله تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً) الرعد آية ٤٢

وقوله تعالى (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم) إبراهيم آية ٤٦

وقوله تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) النمل آية ٥٠

وجه الإشكال أن أصل المكر في اللغة الاغتيال والخدع ، حكاه ابن فارس وعلى هذا فلا يسند إلى الله تعلى إلا على طريق المشاكله وهذا هو المعنى الأول لمكر الله تعلى وقد سبق بيان معنى المشاكلة.

المعنى الثاني/ أن مكر الله تعالى استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون .

المعنى الثالث/ أن مكر الله مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء فمثلاً في الآية الأولى ألقى الله شبه عيسى على من كان يريد قتله فقتلوه وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى والله قد رفعه إليه كما قال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء آية ١٥٧- ١٥٨ فقد سمى جزاءه بإلقاء الشبه على صاحبهم فقتلوه ـ مكراً وليس عقاباً لهم .

المعنى الرابع/ أن معناه التدبير المحكم وهذا ليس يمتنع عليه تعالى والأولى القول بصحة إطلاقه عليه سبحانه وتعالى ابتداءً بالمعنى اللائق بجلاله جل جلاله ، ومما يؤيد ذلك قوله سبحانه وتعالى (والله خير الماكرين) أي أقواهم مكراً وأشدهم ، وأن مكره أحسن وأوقع في محله لبعده عن الظلم[14] .

وهكذا يجاب عن بقية الآيات المذكورة في بيان معنى مكر الله .

قوله تعالى : (سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) التوبة آية ٧٦

وجه الإشكال أن السخرية بمعنى الضحك والاستهزاء وظاهرها غير لائق بالله تعالى وعن هذا جوابان :

الجواب الأول/ أن السخرية بمعنى المجازات على سخريتهم واستعمل الجزاء بلفظ السخرية من باب المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً كقول الشاعر :

إخواننا قصدوا الصبوح بسخلة ... بعثوا عريفهم إليّ خصوصا

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبة وقميصا[15]

والجملة هذه خبرية وقيل أنها دعائية لإنشاء الدعاء عليهم لأن يصيروا ضحكه غير أن هذا العطف لا يصح لأن قوله (ولهم عذاب أليم) معطوفة عليها وهما جملة خبرية فلو كانت دعاء لزم عطف الإخبارية على الإنشائية وفي ذلك خلاف مشهور .

فالأكثرون ومنهم ابن مالك وابن الصلاح على عدم جواز ذلك ، وذهبت طائفة إلى جوازه ومنهم سيبويه كما أشار إلى ذلك بعضهم بقوله :

وعطفك الإنشاء على الإخباري وعكسه فيه خلاف جار

وابن الصلاح وابن مالك أبوا جوازه فيه وبالجل اقتدوا

وجـــــوزته فرقــة قليلة وسيبـــويه وارتضى دليله [16]

وقد حقق الموضوع ابن هشام الأنصاري في كتابه مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، فالأولى أن تكون الجملة خبرية والله أعلم .

الجواب الثاني/ أنه عبر بالسخرية وأراد لازمها وهو إيقاع الذل والهوان بهم [17] ، فيكون من باب الكناية التي قال عنها الدمنهوري في الجوهر المكنون :

لفظ به لازم معناه قصد مع جواز قصده معه يرِد [18]

قوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) التوبة آية ٦٧

وقوله تعالى : (اليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) الأعراف آية ٥١

وقوله (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) الجاثية آية ٣٤

وجه الإشكال في هذه النصوص : أن الله تعالى نفى عن نفسه النسيان فقال (في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) طه آية ٥٢ وقال تعالى (وما كان ربك نسياً) مريم آية٦٤ أي لا ينسى شيئاً فكيف يثبت هنا ما نفاه تعالى عن نفسه ولدفع هذا الإشكال قد أجيب بأجوبة :

الجواب الأول/ أن النسيان بمعنى الترك فيكون معنى نسيهم - تركهم من توفيقه وهدايته وجعلهم كالشيء المنسي المهمل ، ومعنى (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) أي نتركهم من الرحمة في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا [19] ، وإنما يعبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذا أبلغ وجوه الترك الوجه الذي يقترن به بنسيان ، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت ...إلخ قوله : اليوم أنساك كما نسيتني - أي أتركك وأمنعك من رحمتي.

الجواب الثاني/ أن النسيان بمعنى التأخير والمعنى : نؤخرهم في النار فيكون ننساهم من النسء لا من النسيان[20] ، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ،

فيقول: لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني) [21]

الجواب الثالث / أنه من باب تسمية العقوبة باسم الذنب أي أن الله يعاقبهم على نسيانهم فأطلق على العقوبة اسم النسيان من باب المشاكلة وقد سبق إيضاحها . [22]

ومما يشكل وصفه تعالى بالكيد

ورد في أربع آيات قوله تعالى في سورة الأعراف (وأملي لهم إن كيدي متين) الأعراف آية ١٨٣

وقوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف) يوسف آية ٧٦

وقوله تعالى (وأملي لهم إن كيدي متين) القلم آية ٤٥

وقوله تعالى (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) الطارق آية ١٥

وجه الإشكال : أن الكيد معناه الخبث والمكر والاحتيال [23] ، وهذا الخلق قبيح في حق المخلوق فكيف لا ينزه منه الخالق تبارك وتعالى وللخروج من هذا الإشكال أجاب العلماء بأجوبة :

الجواب الأول / أن الكيد في هذه الآيات الأخذ بقوة .

الجواب الثاني / أن معناه المكر وفي المختار الكيد المكر وسمي الأخذ كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان[24]

الجواب الثالث / أن معناه استدراج الكفار من حيث لا يعلمون قاله الزجاج [25]

قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) البقرة آية ٢١٠

وقوله تعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفا) الفجر آية ٢٢

وقوله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ق آية ١٦ ووجه الإشكال في هذه النصوص :

أن معنى المجيء الانتقال والحركة والزوال وهذا من صفات الأجرام والأجسام تنزه عنه الكبير المتعال ذو الجلال والإكرام وقد أجمع المفسرون على أنه تعالى منزه عن المجيء والذهاب لأنه هذا من المحدثات والمرجئات وأنه تعلى أزلي فردي في ذاته وصفاته .

وللخروج من هذا الإشكال فقد اختلف العلماء في إجاباتهم عن هذا الإشكال فذكروا في تفسير الآية وجهين:

الأول/ وهو مذهب السلف الصالح وهو إثبات الإتيان لله بالمعنى اللائق به جل شأنه منزهاً عن مشابهة المحدثات والتقيد بصفات الممكنات كما ذهب إليه الأشعري رحمه الله . [26]

فنصفه بما وصف به نفسه بالمعنى اللائق به جل شأنه منزهاً عن مشابهة المحدثات والتقيد بصفات الممكنات [27] ، فهو إثبات لصفات الكمال من غير تمثيل وتنزيه من غير تعطيل .

الثاني/ وهو قول الجمهور المتكلمين وهو أنه لا بد من التأويل على سبيل التفصيل وقد جاء هذا التفصيل على أقوال :

الأول : أنه جعل مجيء الآيات مجيئاً له تفخيماً له كما يقال: جاء الملك إذا جاء جيش عظيم من جهته .

الثاني: أن المراد إتيان أمره وبأسه فحذف المضاف فهو مجاز بالحذف، بدليل قوله في موضع آخر (أو يأتي أمر ربك) النمل آية ٣٣ وقوله (فجاءهم بأسنا) الأعراف آية ٤ وأيضاً اللام في قوله (وقضي الأمر) تدل على معهود سابق وما ذاك إلا الذي أضمرناه ، وقد رواه أبو يعلى عن الإمام أحمد [28].

الثالث/ أنه تعالى يخلق نقوشاً منظومة في ظلل من الغمام لشدة بياضها وسواد تلك الكتابة يعرف بها حال أهل الموقف في الوعد والوعيد ، وتكون فائدة الظلل أنه تعالى جعلها أمارة لما يريد إنزاله بالقوم ليعلموا أن الأمر قد حضر .

الرابع/ أن يكون الإتيان بمعنى الجزاء فسمي الجزاء إتياناً كما سمي التخويف والعذاب في قصة النمرود وقومه لما أرادوا الصعود وقتال أهله وبنوا الصرح وليصعدوا منه إلى السماء إتياناً فقال (فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم) النمل آية ٢٦

وقال في قصة بني النضير (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) الحشر آية ٢

وقال (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) الأنبياء آية ٤٧

ويكون الإسناد حقيقي والمفعول محذوف أي يأتيهم الله ببأسه وحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله سبحانه وتعالى (إن الله عزيز حكيم) فإن العزة والحكمة تدل على الانتقام بحق وهو البأس والعذاب ، وذكر الملائكة لأنهم الواسطة في إتيان أمره والآتون على الحقيقة ويكون ذكر الله تعالى حينئذ تمهيداً لذكرهم كما في قوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا) البقرة آية ٢١ [29]

الخامس/ أن (في) بمعنى الباء أي يأتيهم الله بظلل من الغمام مع الملائكة .

السادس/ أن المراد من ذكر إتيان الله تصوير غاية الهيبة ونهاية الفزع كقوله تعلى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ولا قبض ولا طي ولا يمين وإنما الغرض تصوير عظمة شأنه .

السابع / بناء على أن الخطاب في (ادخلوا، زللتم) لليهود والمراد لا يقبلون دين الحق إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وذلك أن اليهود كانوا على اعتقاد التشبيه ويجوزون المجيء والذهاب على الله تعالى ويقولون إنه تعالى تجلى لموسى عليه السلام على الطور في ظلل من الغمام فطلبوا مثل ذلك في زمن محمد صلى الله عليه وسلم ، فعلى هذا يكون الكلام حكاية عن معتقد اليهود ولا يبقى إشكال فإن الآية لا تدل إلا على أن قوماً ينتظرون إتيان الله وليس فيها دلالة على أنهم محقون في ذلك الانتظار أم مبطلون .[30]

الثامن/ ما نقله البيهقي عن الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه أن الله تعالى يحدث يوم القيامة فعلاً يسميه إتياناً ومجيئاً لا بأن يتحرك أو ينتقل فإن الحركة والسكون والاستقرار من صفات الأجسام ، والله تعالى أحد صمد ليس كمثله شيء. [31]

والراجح هو الوجه الأول وهو مذهب السلف [32]

الذي لا ينبغي الحيد عنه لأنه أسلم من الوقوع في مزالق التأويل فنلتزم في صفات الكمال إثباتها بغير تمثيل

وتنزيه من غير تعطيل وهو إثبات المعاني على الوجه اللائق به سبحانه وتفويض الكيفيات إليه ، لأن القرآن نزل بلغة العرب فلا يعقل أن يخبرهم بألفاظ لا معنى لها ، وأما القرب فقد قال الأشعري : وإن الله يقرب من عباده كيف شاء .

ومثل هذا يقال في صفة الاستواء ونقول فيه كما قال الإمام مالك لمن سأله : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) .

قوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) ص آية ٧٥ وقوله تعالى (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) المائدة ٦٤

وجه الإشكال أن اليد جارحة لا تليق بالله تعلى ، والجواب كالتالي :

الأول/ أن التعبير باليدين تشريف وتكريم لآدم فمعنى خلقت بيدي أي توليت خلقه بدون واسطة .

الثاني / قال مجاهد : اليد هنا بمعنى التأكيد والصلة مجازاً كقوله (ويبقى وجه ربك) .

الثالث/ المراد باليد القدرة يقال مالي بهذا الأمر يد ، ومالي به يدان ، ومنه قول الشاعر :

تحملت من ذلفاء ما ليس لي يد ولا للجبال الراسيات يدان

الرابع/ قيل التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى القوة والقدرة ، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه وتعالى [33] ليس لها كيفية كما ذهب إليه الأشعري [34] ، ومعناه يليق بجلال الله تعالى وهذا هو التفويض وهو أسلم ، والله أعلم .

قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن آية ٢٧

وقوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) القصص آية ٨٨

وقوله تعالى (ولتصنع على عيني) طه آية ٣٩

وجه الإشكال فيها أننا لو سلمنا بمعناها الظاهري لزم عليه وصف الله بالأجزاء والجوارح ، وهذا يؤدي إلى التشبيه بالمخلوق وهو مذهب المشبهة فقالوا المراد بالوجه وجه الصورة وبالعين الجارحة .

والمذهب الثاني وفيه الفرار من التشبيه ولكنه فرار إلى التعطيل والتمويه وهو مذهب المعتزلة ويصدق عليهم قول الشاعر :

المستجير بعمر عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فقد أول هذا الفريق الوجه بالذات في قوله (كل شيء هالك إلا وجهه) أي إلا ذاته.

قال ابن المنير رحمه الله ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ثلاثة أقوال :

الأول / أنها صفات ذات أثبتها السمع ولا يهتدي إليها العقل [35].

الثاني/ أن العين كناية عن صفة البصر ، واليد كناية عن صفة القدرة ، والوجه كناية عن صفة الوجود .

الثالث/ إمرارها على ما جاءت مفوضاً معناها إلى الله تعالى .

وقال الشيخ شهاب الدين السهرودي في كتابه العقيدة له : أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله الاستواء والنزول والنفس واليد والعين فلا يتصرف بتشبيه ولا تعطيل إذ لولا إخبار الله ورسوله لما تجاسر العقل أن يحوم حول ذلك الحمى .

قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح ، وقال المغيرة : لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصاحبه من طريق صحيح بوجوب تأويل شيء من ذلك ولا المنع من ذكره ، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وينزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) المائدة آية٣ ، ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز مع حضه على التبليغ عنه بقوله (ليبلغ الشاهد الغائب) حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده الله فيها ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى (ليس كمثله شيء) فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم [36] ، وهذا هو الذي يختاره الباحث كان الله له وهو مذهب الإمام الأشعري .

قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) الرحمن آية ٣١

وجه الإشكال أن الله عز وجل لا يشغله شيء عن شيء سبحانه وتعالى ، إذاً فما هو الجواب عن هذا الإشكال وأجيب عن هذا الإشكال بأجوبة :

الأول/ أنه مجاز بالاستعارة فوعيد الله للعباد مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه .

وبمثل هذا التأويل قال شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله حيث قال : وأما تأويله فإنه وعيد من الله تعالى لعباده وتهديد كقول القائل الذي يتهدد غيره ويتوعده ولا شغل له يشغله عن عقابه : لأتفرغن لك وسأتفرغ لك بمعنى سأجد في أمرك وأعاقبك ، وقد يقول القائل للذي لا شغل له : قد فرغت له ، وقد فرغت لشتمي أي أخذت فيه وأقبلت عليه ، وكذلك قوله جل ثناؤه (سنفرغ لكم) سنحاسبكم ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن نعاقب أهل المعاصي ونثيب أهل الطاعة.

وبنحوه قال ابن عطية : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمر عباده وذلك يوم القيامة ، وليس المعنى أن ثم شغلا يفرغ منه ، وإنما وعيد ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لإزبّ العقبة (أما والله لأفرغن لك ما حييت) والتفرغ من كلام الآدمي حقيقة ، وفي قوله تعالى (سنفرغ لكم) جرى على استعمال العرب ، ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا.

الثاني/ أنه بمعنى نقصد لعقوبتكم ونحكم جزاءكم يقال : فرغ بمعنى قصد وأحكم ، يقول القائل لمن أنبه بشيء : إذا أتفرغ لك ، أي إذ نقصد قصدك ، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير :

الآن وقد فرغت إلي نمير فهذا حين كنت له عذاباً

أراد وقد قصدت قصده، والمراد به حينئذ تعلق الإرادة تعلقاً متحيزاً بجزائهم.[37]

الثالث/ أن المراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله(كل يوم هو في شأن) الرحمن آية ٢٩ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل.[38]

الرابع/ قال قتادة: (سنفرغ لكم أيها الثقلان) معناه قد دنا من الله فراغه لخلقه[39] والقول الذي اختاره ابن جرير أرجح في المعنى وهو القول الأول والله أعلم.

قوله تعالى: (أن تقول نفس يا حسرتى على مافرطت في جنب الله) الزمر آية ٥٦

وجه الإشكال: أن الجنب من صفات المخلوق، وللإجابة عن هذا الإشكال اختلف العلماء في معنى الآية على أقوال:

الأول/ ما قاله ابن جزي إن معناه في حق الله وأصله من الجنب بمعنى الجانب، ثم استعير لهذا المعنى[40] وهو الحق.

الثاني/ في جنب الله أي في طاعة الله ، قاله الحسن.

الثالث/ في ذكر الله، قاله عكرمة والضحاك يعني ذكر الله القرآن والعمل به.

الرابع/ في قرب الله، روي عن الفراء ويكون المعنى على ما فرطت في طلب قرب الله .

الخامس/ في أمر الله، قاله مجاهد والزجاج .[41]

السادس/ في جواره وقربه وهو الجنة.

السابع/ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه والعرب تسمي السبب الطريق إلى الشيء جنباً.

الثامن/ أي في ثواب الله تعالى .

التاسع/ قال الراغب: أصل الجنب الجارحة ثم يستعار للناحية والجهة التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال، والمراد هنا الجهة مجازاً، والكلام على حذف مضاف أي في جنب طاعة الله أو في حقه تعالى أن ما يحق له سبحانه ويلزم وهو طاعته عز وجل وعلى ذلك قول سابق البربري من شعراء الحماسة:

أما تتقين الله في جنب عاشق له كبد حرى عليك تقطع

قال الألوسي رحمه الله: وبالجملة لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتنزهه عز وجل من الجنب بالمعنى الحقيقي، ولم أقف على عد أحدٍ من السلف إياه من الصفات السمعية، ولا أعول على كلام المواقف، وعلى فرض العد كلامهم فيها شهير، وكلهم مجمعون على التنزيه، وسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.[42] والأولى من الأقوال هو الأول.

ومن مشكل القرآن صفة الحب : في قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) المائدة آية ٥٤وقوله: (فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران آية ٣١، وصفة الغضب في قوله: (غضب الله عليهم) الممتحنة آية ١٣، وصفة الرضا

في قوله تعالى: (رضي الله عنهم) البينة آية ٨، وصفة العجب في قوله: (بل عجبت) بضم التاء الصافات آية ١٢، وقوله: (وإن تعجب فعجب قولهم) الرعد آية ٥ وصفة الرحمة في آيات كثيرة كقوله تعالى: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) هود آية ٤٣ ، وقوله: (إلا من رحم ربك) هود آية ١١٩

وقد اختلف العلماء في معنى هذه الآيات فذهب بعضهم إلى تأويلها بأن المراد لازمها ، قال السيوطي رحمه الله: وقد قال العلماء: كل صفة يستحيل حقيقتها على الله تعالى تفسر بلازمها، قال الإمام فخر الدين: جميع الأعراض النفسانية أعني الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والمكر والاستهزاء لها أوائل ولها غايات مثاله الغضب فإن أوله غليان دم القلب، وغايته إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه فلفظ الغضب في حق الله يحمل على ترك الفعل لا على انكسار النفس .[43]

وذهب بعض آخر إلى أنها صفات حقيقية لله عز وجل على ما يليق بجلاله وأنها لا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق.[44]

وهؤلاء قد سلكوا طريق الإثبات بغير تمثيل والتنزيه بغير تعطيل للصفات وهذا القول أسلم وهو التفويض بذاته أي تفويض تحديد معناه إلى الله وعدم تعطيلها عن المعنى اللائق بجلال الله مثل ما أثبتنا صفة السمع والبصر وغيرهما على المعنى اللائق بجلال الله ، وكما علمنا هذا القرآن الكريم بقوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى آية ١١

وإليك ما ذكره الإمام أبو حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر وملا على القاري في شرحه حيث قالا: (وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف) أي بلا تفصيل أنهما من صفات أفعاله أو من نعوت ذاته، والمعنى وصف غضب الله ورضاه ليست كوصف ما سواه من الخلق فهما من الصفات المتشابهات في حق الحق على ما ذهب إليه الإمام تبعاً للجمهور السلف، واقتدى به جمع من الخلف فلا يؤولان بأن المراد بغضبه ورضاه إرادة الانتقام ومشيئة الإنعام، والمراد بهما غايتهما من النقمة والنعمة، ثم نقل عن فخر الإسلام قوله: وأهل السنة والجماعة أثبتوا ما هو الأصل المعلوم بالنص، أي بالآيات القطعية والدلالات اليقينية وتوقفوا فيما هو المتشابه وهو الكيفية ولم يجوزوا الاشتغال بطلب ذلك، كما وصف الله به الراسخين في العلم فقال: (يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) [45]

يقول الباحث وهكذا يقال في بقية الصفات التي ذكرت في الآيات السابقات وهذا القول أسلم.

ومما يشكل في حق الله تعالى العندية : بالنسبة لله تعالى كقوله تعالى: (ذلك خير لكم عند بارئكم)البقرة آية ٥٤ وقوله تعالى: (فلهم أجرهم عند ربهم) البقرة آية ٦٢ وكذلك قوله تعالى: (ليحاجوكم به عند ربكم) البقرة آية ٧٦وقوله تعالى: (ثم يقولون هذا من عند الله)البقرة آية٧٩

وجه الإشكال أن كلمة (عند) من معانيها أنها إسم لمكان الحضور والقرب الحسيين وهذا ينزه الله عنه ، والجواب عن هذا أن تحمل العندية على الحضور المعنوي مثل قوله تعالى: (قال الذي عنده علم من الكتاب)

النمل آية ٤٠ والقرب المعنوي كقوله تعالى (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار)[46] وقد قال الإمام السيوطي: أن معنى عند في حق الله تعالى الإشارة إلى التمكين والزلفى والرفعة، يقول الباحث وهذا المعنى هو الأليق في حق الله تبارك وتعالى وتنزيهه عن سمات المحدثات، والله أعلم.[47]

ومما يشكل معناه في حقه تعالى : قوله تعالى: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) الزخرف آية ٨٤ وقوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم) الأنعام آية ٣ لأن ظاهرة تعدد الإله المعبود وهو منافٍ لتوحيد الله في عبوديته الذي دل عليه نصوص كثيرة مثل قوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) البقرة آية ١٦٣ وقد أجاب الأشعري عن الآية الثانية بأن الظرف متعلق بيعلم ، أي عالم بما في السموات والأرض.

الثاني/ وأجاب آخرون أن معنى الآيتين أنه المعبود في السموات وفي الأرض[48].

الثالث/ أنه المعروف بالإلهية أو المتوحد بها.

الرابع/ أنه هو الذي يقال له الله فيهما لا شريك له[49].

الخامس/ أن المعنى: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض فلا يخفى عليه شيء قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه.

السادس/ قال ابن جرير وهو الله في السموات يعلم سركم وجهركم في الأرض، فيعلم مقدم في الوجهين قال القرطبي رحمه الله: والأول أسلم وأبعد من الإشكال وقيل غير هذا، والقاعدة تنزيهه عز وجل عن الحركة والانتقال وشغل الأمكنة.[50]

ومما يشكل في حقه تعالى

قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) وسبب الإشكال أن لكلمة (مع) هنا ثلاثة معانٍ :

أنها تدل على موضع الاجتماع.

أنها تدل على زمان الاجتماع.

أنها مرادفة لعند، أما عند فقد سبق الكلام عنها وأما دلالتها على موضع الاجتماع أو زمانه فهما في حقه تعالى مستحيل لاستحالة وجود ذاته تعالى في كل مكان أو زمان.[51] ، فقال بعضهم (وهو معكم) أي بعلمه.[52]

مشكل القرآن في العقيدة مما يتعلق بعالم الآخرة

قوله تعالى في سورة هود: (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ❖يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ❖فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ❖خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) هود آية ١٠٦

وجه الإشكال أن الله تعالى قال في أهل النار (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ❖خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّك) فظاهر الآية أن عذاب الكفار منقطع وله نهاية وهي انتهاء مدة الدنيا، وقد ذهب

إلى هذا قوم واستدلوا على ذلك بالقرآن الكريم والحديث والمعقول، أما القرآن الكريم فقوله سبحانه (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) أي مدة بقائهما (إِلاَّ مَا شَاء رَبُّك) وفيه استدلالان:

الأول/ أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض المتناهية بالإتفاق.

الثاني/ استثناء المشيئة ويؤكد هذا النص قوله تعالى: (لابثين فيها أحقاباً)[53]

وأما الحديث فما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (ليأتين على جهنم يوم يصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً) رواه البزار عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وأما المعقول: فهو أن العقاب ضرر خالٍ عن النفع لا في حق الله تعالى ولا في حق المكلف فيكون قبحاً، وأيضاً الكفر جرم متناهٍ.

ومقابلة الجرم المتناهي بعقاب لا نهاية له ظلم، وإلى فناء النار والجنة ذهب جهم بن صفوان وقد كفره العلماء لمخالفته الكتاب والسنة.[54]

وذهب جمهور الأئمة من الخلف والسلف إلى أن الجنة والنار موجودتان الآن وأنهما لا يفنيان أبداً ولا يبيدان، وقد ردوا على أدلة مخالفيهم بما يجعلها كسراب بقيعة.

أما استدلالهم بالآية المذكورة فقد بينوا أن الآية (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) لها معنيان جليان:

الأول/ أن المراد سماء النار وأرضها، والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك، وقد أثبت الله أن يبدل أرضاً غير الأرض وسماء غير السماء فقال: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات).

الثاني/ أنه تعالى أراد به السماء والأرض المعهودتين في الدنيا، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده كقولهم: لا آتيك ما جنّ ليل أو سال سيل، وما اختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهم الله تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض.[55]، فالمعنى خالدين فيها أبداً، فبطل بهذين المعنيين قولهم بفناء النار لعدم فناء أرضها الذي توهموه من ظاهر الآية.

وأما احتجاجهم بالاستثناء فهو باطل كما بطل احتجاجهم بديمومة السموات والأرض، وقد اختلف العلماء في معناه على أقوال لا حاجة لذكرها كلها بل نكتفي بذكر أولاها بالصواب في تأويل هذه الآية وهو ماجاء عن قتادة والضحاك بن مزاحم من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبداً إلا ما شاء من تركهم فيها أقل من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة[56]، وأما احتجاجهم بالأثر فاحتجاج باطل لأنه موقوف على ابن مسعود ورواه البزار موقوفاً على عمرو بن العاص رضي الله عنهم والموقوف من قسم الضعيف فلا يحتج به.[57]

وأما الاحتجاج بالمعقول: فالرد عليه بأمرين:

الأول/ أن كلاً من المؤمن أو الكافر عندما يعمل يعمل بدون تحديد مدة لنهاية العمل إلا بحصول الموت فكان الجزاء لا نهاية له بحسب النية لا بحسب العمل.

الثاني/ أن الظلم هو تصرف المتصرف فيما لا يملكه أو وضع الشيء في غير موضعه والله تعالى مالك الدنيا والآخرة فهو يتصرف في ملكه لا مانع له، ومتصرف وفق حكمته بوضع كل شيء في موضعه فبطل بهذا دليلهم من المعقول.

وإضافة إلى ما سبق من بيان معنى الآية الكريمة فقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث أكثر كلها صريحة في الدلالة على بقاء النار وعدم فنائها.

أما الآيات فمنها قوله تعالى: ولهم عذاب مقيم) المائدة آية ٤٠ وقوله (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) الزخرف آية ٤٣ وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) النبأ آية ٣٠ وقوله تعالى (في نار جهنم خالدين فيها) البينة آية ٧ وقوله تعالى: (وما هم منها بمخرجين) وقوله (وما هم بخارجين من النار) البقرة آية ١٦٧ وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الأعراف آية ٤٠ وقوله تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر آية ٣٦ وقوله تعالى (إن عذابها كان غراما) الفرقان آية ٦٥ أي مقيماً لازماً ممتداً.

وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، منها ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته، ويدخل أهل النار النار ثم ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون منها حمماً قد انتحشوا فيلقون في نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة في جانب السيل ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية وأن هذا الحكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان، وقد دلت السنة المستفيضة على أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله.[58]

وأما الأحاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادي منادي منادٍ: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قدر رآه، فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) مريم آية ٣٩ وأشار بيده إلى الدنيا، وزاد ابن ماجه في سننه(ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيها أبداً)[59]

قال الألوسي: وأنت تعلم أن خلود الكفار- أي في النار- مما أجمع عليه المسلمون ولا عبرة بالمخالف

والقواطع أكثر من أن تحصى ولا يقاوم واحدٌ كثيراً من هذه الأحاديث ولا دليل في الآية لما يقوله المخالف.

وحيث قد أنهينا الإجابة عن الإشكال في هذه الآية فالإشكال نفسه في الآية الثانية المتعلقة بالجنة حيث قال تعالى: (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خلدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) هود آية ١٠٨

أما الكلام عن قوله: (ما دامت السموات والأرض) فهو الكلام نفسه الذي سبق في الكلام عن الذين شقوا لا اختلاف فيهما.

ولكن الاختلاف يكون في الاستثناء وهو قوله تعالى: (إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) ووجه الإشكال في هذا الاستثناء أن ظاهره خروج بعض أهل الجنة منها بعد دخولهم وهذا مخالف للآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة الدالة على خلاف ذلك.

ولإزالة هذا الإشكال الكبير فقد حاول أهل التأويل الإجابة عنه بعدة أجوبة:

الأول/ أن معنى (إلا ما شاء ربك) أي من قدر ما مكثوا في النار قبل دخولهم الجنة قالوا: وذلك فيمن أخرج من النار من المؤمنين فأدخل الجنة.

الثاني/ (إلا ما شاء ربك) من الزيادة على قدر مدة دوام السموات والأرض قالوا: وذلك هو الخلود فيها أبداً.

الثالث/ أن استثنى من خلودهم في الجنة احتباسهم عنها ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ إلى أن يصيروا إلى الجنة، ثم هو خلود الأبد، يقول: فلم يغيبوا عن الجنة إلا بقدر إقامتهم في البرزخ، والقول الأول هو الصواب.

وأما قوله تعالى: (عطاء غير مجذوذ) فمعناه عطاء من الله غير منقطع.

وبهذا التأويل للآية يزول الإشكال والتعارض مع بقية نصوص القرآن والسنة الدالة على الخلود الأبدي.[60]

وإليك بعض النصوص القرآنية والنبوية الدالة على ما ذكرناه لكي تزداد يقيناً:

النصوص القرآنية

أما النصوص القرآنية فكثيرة تزيد على ثلاثين آية، أذكر منها فقط التي ذكرت الخلود في الجنة مع التأبيد وعددها ثمان آيات:

قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) النساء آية ٥٧

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) النساء آية ١٢٢

وقال تعالى: (قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) المائدة آية ١١٩

وقال تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) التوبة آية ٢٢

وقال تعالى: (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة آية ١٠٠

وقال تعالى: (وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) التغابن آية ٩

وقال تعالى: (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) الطلاق آية ١١

وقال تعالى: (جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) البينة آية ٨

فهذه الآيات الثمان صريحة في دلالتها على وجود الجنة وخلودها مع أهلها أبد الآبدين لا نهاية لحياتها ولا لبقائها وهي كافية في إزالة الإشكال من الاستثناء في الآية الكريمة في سورة هود.

الأحاديث النبوية

أما الأحاديث النبوية الصحيحة فكثيرة جداً أذكر منها الآتي:

الحديث الأول/ ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وصدره (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح إلى قوله: يا أهل الجنة خلود فلاموت، وقد سبق ذكر رواته من أصحاب كتب الحديث.

الحديث الثاني/ ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، وكل خالد فيما هو فيه)[61]

الحديث الثالث/ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[62] وقوله: (يخلد لا يموت) صريح في دلالته على أبدية الجنة.

الحديث الرابع/ ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا

أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عز وجل: (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) [63]

وبالجملة فالجنة والنار موجودتان الآن خلافاً لمن أنكر وجودهما الآن وستبقيان أبد الآبدين لا نهاية لهما ولا لحياة أهلهما قال الإمام اللقاني: في جوهرة التوحيد:

والنار حق أوجدت كالجنة ... فلا تمل لجاحد ذي جنة

دارا خلود للسعيد والشقي ... معذب منعم مهما بقي

قال في تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: أي دارا خلود مؤبدة، ورد المصنف بذلك على الجهمية وهم منسوبون لجهم إسم رجل - هو ابن صفوان - يقولون بفنائهما وفناء أهلهما وهم كفار لمخالفتهم الكتاب والسنة وقد قال الإمام الأشعري: أن الجنة والنار مخلوقتان [64]

ما يتعلق باعتقاد عصمة الملائكة

قوله تعالى: (وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) البقرة ١٠٢

وجه الإشكال العقدي في هذه الآية أن عمل السحر تعلماً وتعليماً من الكبائر ومن السبع الموبقات كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم حيث قال: (اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه [65].

واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة أو في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم، واختلفوا في غير المرسلين منهم كما ذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي واحتجوا بقوله تعالى: [لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] التحريم آية ٦

وبقوله: [وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ❖ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ❖ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ] الصافات ١٦٤- ١٦٦

وبقوله تعالى [وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ❖ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ] الأنبياء آية ١٩- ٢٠

وبقوله [إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ] الأعراف آية ٢٠٦

وبقوله [كِرَامٍ بَرَرَةٍ] عبس آية ١٦ وبقوله [لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ]الواقعة ٧٩

وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير

وهذه الأخبار لم يرو منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس وهي من أخبار اليهود وافتراءاتهم كما نصه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه .

وقد انطوت القصة التي ذكروها على شنع عظيمة لا تليق بنزاهة الملائكة الكرام ، والصواب عصمة جميع الملائكة وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم .[66]

وبناءً على عصمة الملائكة فيكون معنى الآية كما أوضحه أكثر المفسرين أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبيينه وأن عمله كفتنة فمن تعلمه كفر ومن تركه آمن ، قال الله تعالى عن الملكين [إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ] البقرة آية ١٠٢

فيكون تعلمها للناس تعليم إنذار أي يقولان لمن جاء يطلب تعليمه : لا تفعلوا كذا فإنه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتحيلوا بكذبة فإنه سحر فلا تكفروا ، فعلى هذا المعنى ففعل الملكين طاعة وتصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية وهي لغيرهما فتنة[67] .

ومن الأقوال اللائقة بالملائكة الكرام أن السبب في إنزال الملكين أن السحرة كثروا في ذلك الزمان واستنبطت ألواناً غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتي يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين ولا شك أن هذا من أحسن المقاصد والأغراض، وهذا ما يلزم اعتقاده[68] والله أعلم .

وأما ما روي من أن الملائكة مقتت حكام بني آدم وزعمت أنها لو كانت بمثابتهم من البعد عن الله لأطاعته حق الطاعة فقال الله لهم اختاروا ملكين يحكمان بين الناس فاختاروا هاروت وماروت فكانا يحكمان فاختصمت إليهما امرأة ففتنا بها فراوداها فأبت حتي يشربا الخمر ويقتلا ففعلا ، وسألتهما عن الإسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلماها إياه ، فتكلمت به فعرجت فمسخت كوكباً فهي الزهرة .

وأن الملكين خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما في سرب من الأرض معلقان يصفقان بأجنحتهما ، وروت طائفة أنهما يعلمان السحر في موضعهما ذلك ، وأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض ولا يقطع منه بشيء فهذه قصة تنافي عصمة الملائكة الكرام ولا يجوز روايتها ولا اعتقادها والله أعلم[69] .

وقد أحسن الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره حيث سبق إلى ما قلته فقال: وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل ابن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن

بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال [70] .

وقد ذهب آخرون إلى إنكار تعلم الملكين السحر وتعليمه وقالوا إن (ما) في قوله تعالى: (وما أنزل على الملكين) نافية أي أن السحر لم ينزل على الملكين أصلاً والملكان جبريل وإسرافيل كما زعمت اليهود أن الله أنزلهما بالسحر فنفى الله ذلك [71] .

وأن هاروت وماروت إسم قبيلتين بدل من الشياطين فهما قبيلتان من قبائل الجن كانتا تعلمان الناس السحر.[72]

وفي هذا القول مبالغة في تنزيه الملائكة ولكنه كما قال الألوسي - بعد أن نقل هذا المعنى وتحليل النص القرآني على ما سبق - ولا يخفى لدي كل منصف أنه لا ينبغي لمؤمن حملُ كلام الله تعالى وهو في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة ـ على ما هو أدنى من ذلك .

وما هو إلا مسخ لكتاب الله تعالى عز شأنه وإهباط له عن شأواه، ومفاسد قلة البضاعة لا تحصى وقد أبدى العجب من هذا القول [73]

يقول الباحث: والقول الأول هو الأرجح الذي لا تحريف فيه للنظم القرآني لا لفظاً، ولا معنى وفيه تنزيه الملائكة الكرام مما لا يليق بهم والله أعلم .

و مما يتعلق بالملائكة الكرام قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) [74]

فقد اتخذ بعض الحشوية وهم المجسمة من هذه الآية وسيلة للطعن في حق الملائكة الكرام بالقتل وسفك الدماء، وأنهم زكوا أنفسهم إلى آخر هرائهم وهذيانهم بما يجب على كل مسلم تنزيههم عنه.

وقد خالفوا بهذا كتاب الله تعالى الذي صرح بتنزيههم عن ذلك في نصوص عديدة منها قوله تعالى: (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) التحريم آية ٦

وقوله تعالى: (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقوله تعالى: (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) وهذا النص يقتضي أنه لا شيء من المأمورات بل والمنهيات لأن المنهي عنه مأمور بتركه إلا ويدخل في هذا النص فلا تصدر عنهم معصية بترك مأمور أو فعل منهي وهذا كافٍ في التنزيه لوكان وحده، فكيف ونصوص القرآن القاضية بعصمتهم كثيرة ومنها ما ذكرناه.

وإليك إبطال شبههم التي أوردوها والرد عليها:

أما قولهم: إن قول الملائكة الكرام (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فيه اعتراض على الله وإنكار عليه فنقول لهم: هذا ليس اعتراضاً وإنما هو عرض للشبهة، والاستفهام عنها لدفعها عنهم.

وأما نسبتهم الفساد وسفك الدماء إلى بني آدم ليس غيبة لثلاثة أمور:

الأمر الأول/ إن الله كان أعلمهم إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فلما قال لهم تبارك وتعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة سألوه هل هذا هو الخلق الذي أعلمهم أنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء وهذا لا غبار عليه.

الأمر الثاني/ إن الله قد أسكن الجان في الأرض من قبل فأفسدوا عليها فطردهم عنها إلى البحار وأطراف الجبال، فظن الملائكة أن كل من يستخلف في الأرض سيفسد كما أفسد الجن فسألت ربها تبارك وتعالى هل سيكون هذا الخليفة كذلك.

الأمر الثالث/ أن الغيبة لا تتصور في حق من لم يوجد وآدم وبنوه لم يكونوا في ذلك الوقت موجودين، وأما قول الملائكة (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ليس من باب التزكية للنفس وإنما كان لأمرين الأول: التحدث بالنعمة، والثاني: إظهار لمؤهلهم للخلافة حسب ظنهم وكلا الأمرين لا اعتراض عليه ولا لوم على من يصدر منه فقد قال يوسف عليه السلام (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) يوسف آية ٥٥ ، وذلك لإظهار أهليته لما طلبه من أن يكون وزيراً للمالية بمصر.

الكلام على عصمة الأنبياء وما يتنافى معه

عصمة آدم عليه السلام

قال تعالى: [فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ❖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ❖ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى] طه آية ١٢٠- ١٢٢

وجه الإشكال أن النص القرآني ذكر أن آدم عصى ربه فغوى، وهذا لا يتناسب مع عصمة الأنبياء عليهم السلام وعلو مقاماتهم عند الله تعالى .

وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن هذا الإشكال العقدي في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأجوبة كثيرة سيذكر الباحث أظهرها .

الجواب الأول/ ما قاله الشيخ أبوبكر بن فورك وغيره: أنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة، ودليل ذلك قوله تعالى: [وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ❖ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى] فذكر أن الاجتباء والهداية كان بعد العصيان فقد كانت المخالفة قبل النبوة وذلك جائز لأنه لم يكن قد عصم بالنبوة، وبناءً على هذا فلسنا بحاجة إلى أي تأويل أو إجابات أخرى وإنما نحتاج إليها إذا كان ذلك قد وقع بعد النبوة، وبناءً عليه فقد اختلف المؤولون على أقوال :

القول الأول: أنه أخطأ فإن الله تعالى قد أخبر بعذره بقوله: [وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا] طه آية ١١٥ ، قال ابن زيد: نسي عداوة إبليس له، وما عهد الله إليه من ذلك بقوله: [فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى] طه آية ١١٧ ، فيفهم من قوله: (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

أنه لم يقصد المخالفة .

الثاني : أنه لم يقصد المخالفة استحلالاً لها ولكنه اغتر بحلف إبليس له ولزوجه حيث قال تعالى عنهما﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ❖فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ الأعراف آية ٢١- ٢٢ وتوهما أن أحداً لا يحلف بالله حانثاً، والمؤمن يخدع .

الثالث : أنه أكلها متأولاً وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهي عنها لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا عن الجنس ولهذا قيل : إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة.

الرابع : أن الله لم ينه عنها نهي تحريم، ويكون معنى (فغوى) أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها، والغيّ الجهل ، ومعنى العصيان : الترك والمخالفة .[75]

وقد قال بنحو هذا الإمام ابن حزم الظاهري في كتابه الفِصل في الملل والنحل وأطال الكلام في هذا[76]، ولعل هذا هو الأظهر المناسب لعصمة أبينا آدم عليه السلام.

ومن مشكل القرآن في العقيدة ما يتعلق بعصمة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام

حيث قال عن الكوكب عندما رآه: هذا ربي ، وكذلك عن القمر والشمس وذلك في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ❖فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ ❖ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ❖ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الأنعام آية ٧٥- ٧٨ ونسبة الربوبية إليها شرك.

ومن أجل الخروج من هذا الإشكال في العقيدة فقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآيات على أقوال :

الأول/ أن هذا كان من إبراهيم عليه السلام في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة، وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان .

واستدل القائلون بهذا بما روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي) فعبده حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر، فلما تم نظره قال: (إني بريء مما تشركون) واستدل بالأفول لأنه أظهر الآيات على الحدوث ، قلت: وأصحاب هذا القول يذهبون إلى أن إبراهيم عليه السلام كان ناظراً وليس مناظراً .[77]

وذهب آخرون إلى أنه كان مناظراً لقومه حتى يقنعهم بأن عبادتهم لتلك الكواكب باطلة لأنها آفلة وكل آفل لا تصح عبادته من دون الله تعالى وقد استخدم إبراهيم ما يسمى بالمعارضة لدى المناطقة وهي إقامة الدليل المنتج نقيض الدعوى التي استدل عليها خصمه وأثبته بدليله [78]

وقد اختلف هؤلاء في معنى قول إبراهيم عليه السلام على أقوال نجملها فيما يلي ثم نرجح ما يظهر لنا أنه الأليق بحق سيدنا إبراهيم إمام الموحدين عليه السلام :

القول الأول/ أن هذا لا يصح ـ إشارة إلى قول من قال إنه كان في مهلة الفطرة وحال الطفولة وقبل قيام الحجة ـ وقالوا : غير جائز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، قالوا وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين .

ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أول النظر.

القول الثاني/ وقال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: (واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام) [79] وقال عز وجل: (إذ جاء ربه بقلب سليم) أي لم يشرك به قط ، قال: والجواب عندي أنه قال (هذا ربي) على قولكم لأنهم كانوا يعبدون الأصنام ، والشمس والقمر، ونظير هذا قوله تعالى (أين شركائي) [80] .

وهو تعالى واحد لا شريك له والمعنى: أين شركائي على قولكم.

القول الثالث/ إن إبراهيم لما خرج من السّرب رآى ضوء الكواكب وهو طالب لربه فظن أنه ضوئه قال: (هذا ربي) أي بأنه يتراءى له نوره (فلما أفل) علم أنه ليس بربه (فلما رأى القمر بازغاً) ونظر إلى ضوئه قال: (هذا ربي) فلما أفل قال (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) وليس هذا شركاً إنما نسب ذلك الضوء إلى ربه فلما رآه زائلاً دله العلم على أنه غير مستحق لذلك، فنفاه بقلبه، وعلم أنه مربوب وليس بربه .

القول الرابع/ أن قوله: (هذا ربي) هو على معنى الاستفهام والتوبيخ منكراً لفعلهم والمعنى أهذا ربي أو مثل هذا يكون ربي فحذف الهمزة وفي التنزيل (أفإن مت فهم الخالدون) أي أفهم الخالدون؟ .

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة :

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمان

أي: أبسبع رمين الجمرات فحذف همزة الاستفهام .

القول الخامس/ أن المعنى أي وأنتم تقولون هذا ربي .

القول السادس/ إن المعنى هذا ربي على زعمكم كما قال تعالى: (أين شركائي الذين كنتم تزعمون) وقال: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي عند نفسك ـ وفي زعمك فليس فيه تسليم وإنما المراد مخاطبته حسب زعمه استهزاءً به حيث إن زعمه ذلك لم ينفعه اليوم .

أي فقوله: هذا ربي لا يجوز أن يكون رباً، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها.

قال الألوسي: وهذا منه عليه السلام على سبيل العرض وإرخاء العنان مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فإن المستدرك على فساد قول يحكيه ثم يكر عليه بالإبطال وهذا هو الحق الحقيق بالقبول.

وقد اختار النسفي هذا القول وحكم بأنه الصحيح حيث قال: والصحيح أن هذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأنه أدعى إلى الحق - أي إلى قبول الحق - وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة.[81]

وقد نقل القاضي عياض أن هذا قول معظم الحذاق حيث قال: وذهب معظم الحذاق من العلماء والمفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مبلغاً لقومه ومستدلاً عليهم.[82]

وقد ذكر مثل هذا الإمام النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن حيث قال: إنه عليه السلام قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة لم يقبلوا قوله فمال إلى الاستدراج، وذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم مع أن إبراهيم كان مطمئناً بالإيمان فكان بمنزلة المكره على كلمة الكفر حيث لم يجد إلى الدعوة المأمور بها طريقاً سوى ذلك وإذا جاز ذكر كلمة لمصلحة تعود إلى شخص واحد لقوله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

فلأن يجوز ذكرها لتخليص جم غفير من الكفر والعقاب الأبدي أولى، إلى أن قال ومثل هذه الواقعة قوله: (فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم) وذلك أنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على الحوادث المستقبلة فوافقهم إبراهيم على هذا الطريق في الظاهر مع أنه كان برئياً في الباطن ليتوصل بذلك إلى كسر الأصنام، قال المتكلمون إنه يصح إظهار خوارق العادات على يد من يدعى الإلهية لأن صورة هذا المدعي وشكله يدل على كذبه، فلا يروج التلبيس، ولكنه لا يجوز إظهارها على يد من يدعي النبوة كذباً لأن التلبيس يروج حينئذٍ فكذا ههنا قوله: (هذا ربي) لا يوجب الضلال لأن دلائل بطلانه جلية في ذلك استدراج لهم القبول الدليل، فكان جائزاً.[83]

يقول الباحث: وهذا القول هو الأليق بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وحنكته وخبرته في إلجام الخصوم وإلزامهم، وهو بمعنى القول التالي ولا يليق به عقدياً أنه عبد الأصنام فهو لم يعبد شيئاً من الكواكب أو الأصنام سواءً كان ذلك قبل البلوغ أو بعد البلوغ وأوان التكليف كما قاله بعضهم، فهذا القول فاسد من عدة وجوه:

الأول/ إن القول بربوبية النجم كفر بالإجماع والكفر لا يجوز على الأنبياء باتفاق.

الثاني/أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة لأن الله تعالى أخبر عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد بالرفق مراراً بقوله يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر الآيات، وفي هذا الموضع دعا أباه إلى التوحيد بالكلام الخشن والدعوة بالرفق مقدمه على الدعوة بالخشونة أو الغلظة.

الثالث/ أن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه ملكوت السموات والأرض بدليل فاء التعقيب في قوله: (فلما جن عليه الليل) فكيف يتصور اعتقاده ربوبية غير الله تعالى.

الرابع/ أنه تعالى وصفه بقوله: (إذ جاء ربه بقلب سليم) ومدحه بقوله: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل)

أي من أول زمان الفطرة، وإذا كان الأمر كذلك فلا يتصور أن يقع في عبادة غير المنافية لما أوتيه من الرشد، مما يدل على أنه كان مناظراً لقومه فهذا دليل على مناظرته المشركين من قومه.

الخامس/ قوله عقب هذه القصة: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ولم يقل على نفسه.

السادس/ أنه قال بعد القصة: (يا قوم إني بريء مما تشركون) مع أنه ما كان في الغار لا قوم ولا صنم.

السابع/ أن في قوله: (وحاجه قومه) دليلاً على أنه إنما اشتغل بالنظر في الكواكب بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادتها فقال: (لا أحب الآفلين) رداً عليهم وتنبيهاً على فساد قولهم، ويؤكده قوله: (وكيف أخاف ما أشركتم) لأنه يدل على أنهم كانوا خوفوه بالأصنام كما في قصة هود حيث قال له قومه: (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) هود آية ٥٤.

الثامن/ إن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار وكان ينبغي أن يستدل أولاً بغروب الشمس على عدم آلهيتنا ثم يبطل آلهية القمر وسائر الكواكب بالطريقة الأولى، وإن لم يكن كذلك علمنا أن المقصود إلزام القوم وإفحامهم والابتداء بأفول الكواكب، لأنه اتفقت مكالمته مع القوم حال طلوع ذلك النجم، ثم امتدت المناظرة إلى أن طلعت الشمس.

التاسع/ قوله لأبيه وقومه (ما تعبدون) وقوله تعالى (واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام) إبراهيم آية ٣٥ وقوله (أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) الشعراء آية ٧٥- ٧٧ كل هذه الأدلة تدل على أنه ما أشرك بالله طرفة عين [84].

وفي هذا غنية عن كل قول يدل على شيء سواه فاحذر أن تعتقد سواه فإن فيه الهلكة والسقوط في الكفر والله أعلم.

ومن الإشكال في العقيدة ما ذكر في حق نبي الله أيوب عليه السلام

قال تعالى: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ❖فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) الأنبياء آية ٨٣- ٨٤

وقال تعالى: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ❖ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ❖وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ❖وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ص آية ٤١- ٤٣

وجه الإشكال في هذا أنه لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبياء الله ورسله عليهم السلام ليقضي من أنفاسهم وتعذيبهم وطراً ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه. [85]

وأن الرسل يجب الاعتقاد في حقهم أنهم يجوز عليهم من الأعراض البشرية ما لا يشين في مراتبهم العلية أي ما لا يكون فيه نقص أو ينفر الناس عنهم لأن إصابتهم بالأمراض المنفرة يتنافى مع رسالتهم حيث أن مقتضاها أن يكونوا على حالة ترغب الناس بالاتصال بهم ومعاشرتهم حتى يسمعوا لدعوتهم، ومع الأمراض المنفرة كالجذام والبرص والجدري لا يرغب الناس في الجلوس معهم أو النظر إليهم.

والذي يجوز في حقهم هي الأمراض الخفيفة مثل الحمى والصداع، وقد ذكر كثير من المفسرين عند تفسير هذه الآية أن أيوب كان رجلاً كثير المال عنده من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأرض المتسعة بأرض الثنية من حوران وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب منه ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكراً لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومساء ، وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش عنه الأنيس، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها .. إلخ [86]

وهذا مما لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال العلامة إبراهيم اللقاني في نظمه جوهرة التوحيد :

وجائز في حقهم كالأكل وكالجماع للنساء في الحل

قال شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري في شرحه عليها : ومثل ما ذكره من الأكل والجماع وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية كالمرض الخفيف، ومنه الإغماء فيجوز عليهم، وقيد أبو حامد الإغماء بغير الطويل وجزم به البلقيني بخلاف الجنون قليله وكثيره لأنه نقص وكالجنون الجذام والبرص والعمى وغير ذلك من الأمور المنفرة، فلم يعم نبي قط ولم يثبت أن شعيباً كان ضريراً وما كان يعقوب فهو حجاب على العين من تواصل الدموع، ولذلك لما جاءه البشير عاد بصيراً وما كان في أيوب من البلاء فكان بين الجلد والعظم فلم يكن منفراً، وما اشتهر في القصة من الحكايات المنفرة فهي باطلة . [87]

وهكذا قال الشيخ محمد نوري الشافعي في شرحه لعقيدة العوام عند قول الناظم :

وجائز في حقهم من عرض من غير نقص كخفيف المرض [88]

تبرئة داود مما نسب إليه مما تقشعر منه الجلود لأنه ينافي عصمة الأنبياء ولا يتناسب مع مقاماتهم العلية

قال تعالى في سورة ص : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ❖ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ❖ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ❖ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ❖ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

فقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم والسيوطي والبغوي من الأخبار ما تقشعر منه الأبدان، ولا يوافق عقلاً ولا نقلاً عن ابن عباس ومجاهد ووهب بن منبه وكعب الأحبار والسدي من القصص ما ملخصها أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم فقيل له : إنك ستبلى، وتعلم اليوم الذي ستبلى فيه فخذ حذرك فقيل له: هذا اليوم تبتلى فيه فأخذ الزبور ودخل المحراب وأغلق بابه وأقعد خادمه على الباب،

وقال: لا تأذن لأحد اليوم فبينما هو يقرأ الزبور، إذ جاءه طائر من ذهب يدرج بين يديه فدنا منه فأمكن أن يأخذه، فطار فوقع على كوة المحراب فدنا منه ليأخذه فطار، فأشرف عليه لينظر أين وقع فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض فلما رأت ظله نفضت شعرها فغطت جسدها به، وكان زوجها غازياً في سبيل الله فكتب داود إلى رأس الغزاة أن اجعله في حملة التابوت - وهو صندوق فيه بعض مخلفات أنبياء بني إسرائيل فكانوا يقدمونه بين يدي الجيش تبركاً به رجاء النصر - وكان حملة التابوت إما أن يفتح لهم وإما أن يقتلوا، فقدمه في حملة التابوت فقتل، وفي بعض هذه الروايات الباطلة: إنه فعل ذلك ثلاث مرات، حتى قتل في الثالثة، فلما انقضت عدتها خطبها داود عليه السلام - فتسور عليه الملكان وكان ما كان مما حكاه الله تعالى.

ولكي يؤيدوا هذه القصة الباطلة بما ظاهره الحق لم يكتفوا بهذه الروايات الموقوفة على بعض الصحابة والتابعين ومسلمة أهل الكتاب، بل رووا بعضها مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره السيوطي في الدر المنثور حيث قال: وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم بسند ضعيف، عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة قطع على بني إسرائيل وأوصى صاحب الجيش فقال: إذا حضر العدو فقرّب فلاناً بين يدي التابوت.[89]

وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به من قدم بيد يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم معه الجيش، فقتل وتزوج المرأة ونزل الملكان على داود عليه السلام فسجد فمكث أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه، فأكلت الأرض جبينه وهو يقول في سجوده: (رب زلّ داود زلةً أبعد ما بين المشرق والمغرب، رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنوبه جعلت ذنبه حديثاً في المخلوق من بعده فجاء جبريل عليه السلام من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله قد غفر لك، وقد عرفت أن الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة، فقال: يارب دمي الذي عند داود، قال جبريل: ما سألت ربك عن ذلك فإن شئت لأفعلن، فقال: نعم، فعرج به جبريل وسجد داود عليه السلام فمكث ما شاء الله ثم نزل، فقال: قد سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه، فقال: قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له هب لي دمك الذي عند داود، فيقول: هو لك يا رب، فيقول: فإن لك في الجنة ماشئت وما اشتهيت عوضاً، وقد رواها البغوي عن طريق الثعلبي - مع حرصه على تحري صحة الرواية، والرواية منكرة مختلقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي سندها ابن لهيعة ويزيد ابن أبان الرقاشي، وكلاهما ضعيف عند علماء الحديث، وقال ابن حجر العسقلاني: إن الرقاشي ضعيف[90] وقال فيه النسائي والحاكم: إنه متروك وقال فيه ابن حبان: كان من خيار عباد الله، من البكائين بالليل غفل عن حفظ الحديث مشتغلاً بالعبادة، حتى كان يقلب كلام الحسن يجعله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم - فلا تحل الرواية عنه إلا على جهة التعجب.[91]

وقد قال أبو الفداء ابن كثير - ناقداً لهذه القصة- وقد ذكر المفسرون هذه القصة وأكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم حديثاً لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ، ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق، وما تضمنه فهو حق أيضاً .[92]

ومن هنا يتبين لنا كذب رفع هذه الرواية المنكرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاد نصدق ورود هذا عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وإنما هي اختلاقات وأكاذيب من إسرائيليات أهل الكتاب، وهل يشك مؤمن عاقل يقر بعصمة الأنبياء في استحالة صدور هذا عن داود عليه السلام ثم يكون على لسان من ؟ على لسان من كان حريصاً على تنزيه إخوانه الأنبياء عما لا يليق بعصمتهم وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومثل هذا التدبير السيء والإسترسال فيه على ما رووا، لو صدر من رجل من سوقة الناس وعامتهم، لاعتبر هذا أمراً مستهجناً مستقبحاً فكيف يصدر من رسول جاء لهداية الناس، زكت نفسه وطهرت سريرته وعصمه الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وهو الأسوة الحسنة لمن أرسل إليهم ؟؟

ولو أن القصة كانت صحيحة لذهبت بعصمة داود ولنفرت منه الناس ولكان لهم العذر في عدم الإيمان به، فلا يحصل المقصد الذي من أجله أرسل الرسل، وكيف يكون على هذه الحال من قال الله في شأنه (وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في حكمهم وما ولوا)[93]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أحب الناس إليّ يوم القيامة، وأقربهم مني مجلساً : إمام عادل، وإن أبغض الناس إليّ يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر) رواه أحمد والترمذي .[94]

ولكي يستقيم هذا الباطل قالوا: إن المراد بالنعجة المرأة وإن القصة خرجت مخرج الرمز والإشارة ورووا أن الملكين لما سمعا حكم داود وقضاءه بضم صاحب التسعة والتسعين نعجة لصاحب النعجة قالا له: وما جزاء من فعل ذلك ؟ قال: يقطع هذا وأشار إلى عنقه .

وفي رواية (يضرب من هاهنا وهاهنا وهاهنا) وأشار إلى جبهته وأنفه وما تحته فضحكا وقالا: أنت أحق بذلك منه وصعدا)

والحق أن الآيات ليس فيها شيء مما ذكروا، وليس هذا في شيء من كتب الحديث المعتمدة وهي التي عليها المعول، وليس هناك ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجازه، ولا ما يصرف القصة عن ظاهرها

إلى الرمز والإشارة وقد قال القاضي عياض: وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الإخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين - اقتداءً بهم - ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك.

ولا ورد حديث صحيح والذي نص عليه في قصة داود (وظن داود أنما فتناه) اختبرناه وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم.[95]

والتفسير الصحيح لهذه الآيات والذي ينسجم مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو أن داود عليه السلام كان قد وزع أعماله ومسئوليته نحو نفسه ونحو رعاياه على الأيام وخص كل يوم بعمل، فجعل يوماً للعبادة ويوماً للقضاء وفصل الخصومات، ويوماً للاشتغال بشئون نفسه وأهله، ويوماً لوعظ بني إسرائيل، ففي يوم العبادة بينما كان منشغلاً بعبادة ربه في محرابه، إذ دخل عليه خصمان تسورا عليه من السور ولم يدخلا من المدخل المعتاد، فارتاع منهما وفزع فزعاً لا يليق بمثله من المؤمنين فضلاً عن الأنبياء المتوكلين على الله غاية التوكل الواثقين بحفظه ورعايته.

وظن بهما سوءاً وأنهما جاءا ليقتلاه أو يبغيا به شراً ولكن تبين له أن الأمر على خلاف ما ظن، وأنهما خصمان جاءا يحتكمان إليه فلما قضى بينهما وتبين له أنهما بريئان مما ظنه بهما، استغفر ربه وخر ساجداً لله تعالى تحقيقاً لصدق توبته والإخلاص له وأناب إلى الله غاية الإنابة، ومثل الأنبياء في علو شأنهم وقوة ثقتهم بالله، والتوكل عليه ألا تعلق نفوسهم بمثل هذه الظنون بالأبرياء، ومثل هذا الظن - وإن لم يكن ذنباً في العادة - إلا أنه بالنسبة للأنبياء يعتبر خلاف الأولى والأليق بهم على حد قول أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).[96]

فالرجلان خصمان حقيقيان وليسا ملكين كما زعمه بعض المفسرين، والنعاج على حقيقتها وليس ثمة رموز ولا إشارات، وهذا التأويل يوافق نظم القرآن.

ويتفق وعصمة الأنبياء، فالواجب الأخذ به ونبذ الخرافات والأباطيل التي هي من صنع بني إسرائيل، وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم، ولا تمييز بين الغث والسمين.[97]

وقد قال الإمام النسفي رحمه الله تعالى: (وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء، وأحب أن يقتل ليتزوجها، أي زوجة أوريا فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء عليهم السلام).[98]

مشكل القرآن فيما يتعلق بعصمة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

ومما يجب اعتقاده في حق خاتم الأنبياء والمرسلين في قول الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ الأحزاب آية ٣٧ أن الذي أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قد أوحى إليه أن زيد بن حارثة سيطلق زينب بنت جحش وسيزوجه الله بها بعد نهاية عدة طلاقها من

زيد رضي الله عنه .

قال القرطبي : قال علماؤنا وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، ولا يجوز الاعتقاد السيئ الذي ذكره بعض المفسرين في تفسير هذه الآية حيث قال : الذي أخفاه النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، تعظّماً بالشرف قال له : اتق الله ـ أي فيما تقول عنها ـ وأمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف.[99]

يقول الباحث : ولا يجوز اعتقاد هذا بل لا يجوز ظنه بالمعصوم وسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

الآيات التي يخالف ظاهرها مذهب أهل السنة والجماعة

(ما يتعلق بقضية التوبة وأنها تجب ما قبلها)

قال تعالى (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) آل عمران آية ٩٠

وجه الإشكال : أن الشريعة قد قررت أن توبة كل كافر تقبل سواء كفر بعد إيمان وازداد كفرا أو كان كافراً من أول مرة وهذا يتنافى مع قوله تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) الشورى آية ٢٥ فلا بد في هذه الآية من تخصيص تحمل عليه ويصح به في قبول التوبة ، ولذلك فقد اختلف العلماء في معناها .

وقد اختلف المفسرون في تقرير معناها على أقوال : فقال بعضهم في معناها لن تقبل توبتهم عند الموت قال النحاس وهذا قوله حسن كما قال الله عز وجل (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) النساء آية ١٨ حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) وروي عن الحسن وقتادة وعطاء (وقد قال عليه الصلاة والسلام : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) [100]

وقال بعضهم لن تقبل توبتهم التي كانوا عليها قبل أن يكفروا لأن الكفر قد أحبطها .

وقال بعضهم لن تقبل توبتهم إذا تابوا من الكفر إلى كفر آخر وربما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام .

وقال قطرب : هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة قالوا نتربص بمحمد ريب المنون فإذا بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا ، فأنزل الله تعالى (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم) أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر ، فسماها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح مع الندم عزم ، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم [101].

والذي يظهر أن هذا إشارة إلى قوم بأعيانهم من المرتدين ختم الله عليهم بالكفر وجعل ذلك جزاء لجريمتهم ونكايتهم في الدين وهم الذين أشار الله إليهم بقوله : (كيف يهدي الله قوماً) فأخبر عنهم أنهم لا تكون لهم

توبة فيتصور قبولها ، أي قد جعلهم الله من سخطه في حيز من لا تقبل توبته إذ ليست لهم ، فهم لا محالة يموتون على الكفر .

ولذلك بين حكم الذين يموتون كفاراً عقب الآية فبانت منزلة هؤلاء ، فكأنه أخبر عن هؤلاء المعنين أنهم يموتون كفاراً ثم أخبر الناس عن حكم من يموت كافراً [102].

ويكون قوله تعالى: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) في حكم البيان للآية المذكورة [103] .

ويكون معنى الآية : لا توبة لهم حتى تقبل لأنهم لم يوفقوا لها ، فعدم توبتهم كناية عن عدم وقوعها والله أعلم [104] .

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) النساء ١٣٧

فهي في الإشكال مثلها في أنها تدل بظاهرها على عدم قبول توبة هؤلاء وغفران الذنوب لهم وإن تابوا ، وهذه الدلالة تتنافى مع قوله تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) طه آية ٨٢

ولذلك اختلف أهل التأويل في معناها على أقوال :

الأول/ قالت طائفة منهم قتادة وأبو العالية: الآية في اليهود والنصارى آمنت اليهود بموسى والتوراة ثم كفروا ، وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل ، ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ورجح الطبري هذا القول .

الثاني / وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية في الطائفة من أهل الكتاب التي قالت (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) الأعراف آية ٧٢ وذلك لأنهم يموتون في كفرهم مترددين بين الإيمان والكفر لصد غيرهم عن الإسلام .

الثالث / قال مجاهد وابن زيد : الآية في المنافقين فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر ثم يؤمن ثم يكفر يتردد في ذلك فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً بأن استمر على نفاقه حتى مات ، قال القاضي أبو محمد بن عطية وهذا هو القول المترجح [105] ، وأيد ترجيحه هذا بالآية التي بعدها (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً) فإنها تدل على أن الآية الأولى إنما هي في المنافقين .

الرابع / ما نقله الألوسي أن المشهور عن الجمهور أن المراد من نفي المغفرة والهداية نفي ما تقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت ، ومعنى نفيه استبعاد وقوعه ، قال من تكرر منهم الارتداد وازداد الكفر والإصرار عليه صاروا بحيث قد ضربت قلوبهم بالكفر وتمرنت على الردة ، وكان الإيمان عندهم أدون شيء وأهونه فلا يكادون يقربونه منهم قيد شبر ليتأهلوا للمغفرة وهداية سبيل الجنة ، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم [106] .

ونحوه ما قاله في فتح القدير: أن المراد بالآية إنهم ازدادوا كفرا واستمروا على ذلك كما هو الظاهر في حالهم وإلا فالكافر إذا آمن وأخلص إيمانه وأقلع عن الكفر فقد هداه الله السبيل الموجب للمغفرة والإسلام يجبُّ ما قبله ، ولكن لما كان هذا مستبعداً منهم جداً كان غفران ذنوبهم وهدايتهم إلى سبيل الحق مستبعداً [107]، يقول الباحث: ويظهر أن هذا هو الأرجح في بيان معنى الآية والله أعلم .

ما يتعلق بأفعال العباد :

قوله تعالى : [أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۞ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا] النساء آية ٧٨ - ٧٩

وجه الإشكال / أن ظاهر قوله تعالى (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) أن الحسنة والسيئة من عند الله ، وظاهر قوله تعالى بعدها (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) خلاف ذلك فظاهرهما التناقض والتنافي .

والجواب عن هذا الإشكال أنه إن كان قوله تعالى (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) من كلام الكفار أو المنافقين والتقدير يقولون كذا ، فلا يحتاج إلى جواب لأن الكافر والمنافق لا يستبعد منه مثل هذا الكلام أو الاعتقاد لأنه ليس بعد الكفر ذنب وإن كان من كلام الله تعالى رداً على قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم إن ما أصابهم من حسنة فمن عند الله وما أصابهم من سيئة في عنده صلى الله عليه وسلم فهنا يأتي الإشكال وعنه جوابان :

الأول / أن الحسنة والسيئة كليهما من عند الله خلقاً وإيجاداً وليس للعبد في ذلك مدخل ولكن نسبة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد تأدباً مع الله في كلامه وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : (الخير كله بيديك ، والشر ليس إليك) [108]

وقد روعي هذا الأدب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى في حوار العبد الصالح مع موسى عليه السلام في السفينة (فأردت أن أعيبها) فأسند العيب إلى إرادته تأدباً مع الله ولما كانت إقامة الجدار من أجل الحفاظ على مال الغلامين اليتيمين الذين في المدينة خيراً أسنده إلى إرادة الله تعالى فقال: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربك) .

وقوله تعالى : [وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا] {الجنّ: ١٠} ففي جانب الشر لم يسنده إلى الله تعالى تأدباً وفي جانب الخير أسند إلى إرادة الله تعالى .

الثاني/ أن نسبة الحسنة إلى الله تعالى تفضلٌ منه وإحسانٌ أي ما أصابك من حسنة فبفضله وإحسانه ، وأن نسبة السيئة إلى العبد لبيان أنه هو المتسبب فيها بذنوبه أي وما أصابك من سيئة فبسبب ذنوبك فنسبها إليه

على جهة التسبب فهي من العبد تسبباً وكسباً ، ويدل على هذا قوله تعالى :[وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] الشورى آية ٣٠ أي بسبب كسبها فالباء سببية وإذا عدنا إلى الحقيقة التي دلت عليها النصوص سنجد أن الخير والشر من عند الله تعالى كما صرحت به الآية (قل كل من عند الله) وقد دلت نصوص في القرآن الكريم على أن الشر والإبتلاء بالبلايا من عند الله تعالى كقوله تعالى : [وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ] آل عمران آية ١٦٦ [وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] الأنبياء آية ٣٥ وقوله تعالى : [وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ] الرعد آية ١١ وقد جاءت أحاديث تدل على ما دل عليه القرآن الكريم منها قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر) رواه قتادة مرسلاً وقد جاء في الصحيح (والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولاحزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه) وقد رواه البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة والترمذي كذلك [109] قال ابن المنير والحاصل أن المرض كما جاز أن يكون مكفراً للخطايا فكذلك يكون جزاءً لها [110] ، فالسيئة والبلاء إذن يكون سببهما ذنوب العباد ، وهذا هو الرأي الأرجح والله أعلم .

خاتمة البحث

أهم النتائج التي توصلت إليها وهي كما يلي :

١. إن اختلاف المتكلمين في الصفات كله ينتهي بالقصد الحسن ، فمن سلك مسلك التأويل إنما قصد تنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، ففر من التشبيه أو التجسيم إلى تأويلها حسبما تقتضيه لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، ومن أجرى الصفات كما جاءت إنما أراد أيضاً عدم تعطيل صفات الله تعالى ولذلك أثبتوها كما وردت مع اعتقادهم أن لها معانياً تليق بجلال الله تعالى .

٢. أن خلافهم بين الإثبات والتأويل هو في الصفات التي يمكن أن يتصف بها الله تعالى وليس في إثباتها ما لا يليق بجلال الله تعالى وأما ما في إثباتها نقص في حق الله تعالى، فلا خلاف في تأويلها وذلك كالمعية في قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) فكلهم متفقون على أن معيته تعالى معنا أينما كنا إنما هي بعلمه تبارك وتعالى المحيط بكل شيء.

٣. المذهب المختار هو مذهب السلف في باب الأسماء والصفات وخلاصته إثبات بغير تجسم ولا تمثيل وتنزيه من غير تشبيه ولا تعطيل وأن نكل علم الكيفية إلى الله تعالى كما علمنا ذلك ربنا تبارك وتعالى بقوله : (ليس كمثله شيء وهو السميع العليم) [111] واللازم اتباعه كما قال صاحب جوهرة التوحيد :

وكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف

فتابع الصالح ممن سلفـــا ... وجانب البدعة من خلفـــا [112]

وقد جمع علماء التوحيد التوحيد في قاعدتين ينبغي اعتمادهما واعتقادهما :

الأولى: قولهم يجب اعتقاد أن الله تعالى متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ومحال.

الثانية: قولهم كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، وقد أحسن قائلهم:

كل ما ترتقي إليه بوهم ... من جلال ورفعة وسناء

فالذي أبدع البرية أعلى ... منه سبحان مبدع الأشياء [113]

وقال أبو إسحاق الإسفراييني: جمع أهل الحق جميع ما قيل في التوحيد في كلمتين، إحداهما أن كل متصور في الأفهام فالله بخلافه ، والثانية اعتقاد أن ذاته ليست مشبهة بذات ولا معطلة عن الصفات .

وقد حكي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: من انتهض لطلب مدبره فانتهى إلى موجود ينتهي إليه فكره فهو مشبه وإن اطمأن إلى العدم الصرف فهو معطل أو إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد لأن العجز عن درك الإدراك إدراك كما قال أبوبكر الصديق الأكبر رضي الله عنه .

التوصيات

١. على كل مسلم حريص على سلامة عقيدته أن يعتمد على مصادرها الأساس الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح.

٢. عليه أن يأخذ هذه العقيدة من أفواه رجال أهل السنة والجماعة المتبعين لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح.

٣. عليه أن يعمل بجد وإخلاص على تعليم الأمة هذه العقيدة السليمة وأن يعالج ما لدى الأمة من عقائد منحرفة عنها بالطريقة السلمية التي تبعد عن أسلوب التنفير لمن يدعوهم وإن طال زمان نجاحه، فالزمان جزء من العلاج ولنا في رسول الله نوح عليه السلام قدوة في صبره على قومه وهو يدعوهم إلى عقيدة التوحيد السليمة ألفاً إلا خمسين عاماً ، والله الهادي إلى سواء الصراط .

هذا ما قصدته من البحث في صورته المتواضعة حول مشكل القرآن في العقيدة، وأرجو الله تعالى أن يكون قد وفقني لما قصدت إليه، وأن يكون قد سددني فيما ظمنته ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيد الكائنات محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع والهوامش

1) غرائب القرآن على هامش جامع البيان ج ١ ص١٥٤ للنيسابوري ، وروح المعاني جـ١ ص١٤٦

2) روح المعاني ج ١ ص١٤١

3) الأسماء والصفات للبيهقي ص٦١٩

4)الفتوحات الإلهية للجمل حاشية الجلالين جـ ١ ص١٧

5) الفتوحات الإلهية للجمل حاشية الجلالين جـ ١ ص١٧

6)تفسير القرطبي جـ١ ص١٩٥

7) أضواء البيان لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ج ١ ص٤١

8) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص٢٠٨- ٢٠٩

9) جامع البيان ج١ ص ١٠٢

10) جامع البيان ج١ ص١٠٢

11) شرح عقود الجمان للسيوطي ص ١١٠ وفتح القدير ج ١ ص٤٤ والجامع لأحكام القرآن ج ١ ص٢٠٧

12) جامع البيان ج١ ص١٠٢- ٢٠٣

13) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص٢٠٨

14) الجامع لأحكام القرآن ج٧ ص٢٥٤ ص٣٩٧ ، روح المعاني ج٣ ص١٧٩

15) الجامع لأحكام القرآن ج٨ ص٢١٥

16) روح المعاني ج ١٠١ ص ١٤٧ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري

17) تفسير غرائب القرآن على هامش جامع البيان ج ١٠ ص١٣٢ط دار الحديث ـ القاهرة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م

18) إنظر النظم على هامش شرح عقود الجمان للسيوطي ص١٣٠ ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م

19) لسان العرب ج١٤ ص ٢٥١

20) روح المعاني ج٨ ص١٣٠والجامع لأحكام القرآن ج٨ ص١٩٩ وتفسير ابن عطيه ج٦ ص٥٥٨

21) رواه مسلم في كتاب الزهد عن أبي هريرة ج٢ ص٥٨٧ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري كتاب صفة القيامة والرقائق حديث رقم ٢٤٣٠ وهو جزء من الحديث المذكور .

22) تفسير المحرر الوجيز لابن عطيه ج٥ ص٥٢١- ٥٢٢

23) لسان العرب حرف الكاف

24) الفتوحات الإلهية على الجلالين ج٢ ص٢١٥ ط دار إحياء التراث بيروت

25) لسان العرب حرف الكاف

26) تفسير غرائب القرآن على هامش جامع البيان ج٢ ص٢٩٤والإبانة لأبي الحسن الأشعري المضمنة كتاب تبيين المفتري لابن عساكر ص١٦٢ ط دار الجيل بيروت

27) روح المعاني ج٢ ص٩٨

28) انظر هامش الأسماء والصفات ص ٥٦٣ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان

29) الجامع لأحكام القرآن ج٣ ص٢٥- ٢٦ وروح المعاني ج٢ ص٩٨

30) غرائب القرآن ج ص٢٩٤- ٢٩٥ ـ الأسماء والصفات للبيهقي مع حاشيته ص٥٦٣

31) الفصل لابن حزم ج٢ ص١٧٣ ط دار الفكر

32) الأسماء والصفات ص٥٦٤ والإبانة ضمن كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٦٢ وشرح الطحاوية ص٣١٣ الطبعة الأولى سنة ١٣٩٢هـ

33) فيض القدير ج٤ ص٤٤٥ والإبانه لأبي الحسن الأشعري ص٣٦والمحرر الوجيز ج١٢ ص٤٨٨

34) الأسماء والصفات ص٤١٧وكتاب الإبانة عن أصول الديانة المضمنة كتاب تبيين كذب المفتري ص١٥٩

35) الفصل ج٢ ص١٦٦

36) فتح الباري ج٣ ص٤٠١- ٤٠٢ والإبانة لأبي الحسن الأشعري ص١٥٨ المضمنة في كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر

37) الأسماء والصفات للبيهقي ص٦٢ الطبعة الأولى دار الكتب العلمية وروح المعاني ج٢٧ ص١١١ دار إحياء التراث العربي وجامع البيان ج٢٧ ص٧٩ وحاشية الصاوي على الجلالين ج٤ ص١٥٤ .

38) تفسير النسفي ج ص٢١١ دار الكتاب العربي بيروت وتفسير ابن جزي ج٤ ص٨٤ وتفسير غرائب القرآن للنيسابوري على هامش جامع البيان ج١٧ ص٨٩ وانظر المحرر الوجيز لابن عطية ج١٤ ص١٩٩- ٢٠٠ وحديث إزب العقبة أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٣ ص٤٦٢ عن كعب ابن مالك.

39) الدر المنثور ج٧ ص٧٠١ طبعة دار الفكر وزاد المسير لابن الجوزي ص٣٧٩ .

40) التسهيل في علوم التنزيل ج٣ ص١٩٨ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥هـ مطبعة مصطفى محمد الحلبي البابي .

41) تفسير زاد المسير لابن الجوزي ص١٢٣٤ ط دار ابن حزم والإتقان ج٢ ص٨ ط مصطفى الحلبي ١٣٧٠هـ ١٩٥١م .

42) الجامع لأحكام القرآن ج١٥ ص٢٨٠ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

43) الإتقان ج٢ ص٨

44) شرح الواسطية لمحمد خليل هراس ص١٤٢

45) انظره ص٣٦ مطبعة دار الكتب العربية الكبرى لصاحبه مصطفى البابي الحلبي وأخويه بكري وعيسى

46) المغني لجمال الدين ابن هشام الأنصاري ج١ ص١٣٥ دار إحياء الكتب العربي عيسى البابي الحلبي وشركاه

47) الإتقان ج٢ ص٨ فقد نقلت عنه بتصرف بسيط الطبعة الثالثة شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

48) الإتقان ج١ ص٨

49) غرائب القرآن ج٧ ص١٠١ وتفسير النسفي ج٢ ص٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

50) الجامع لأحكام القرآن ج٦ ص٣٩٠ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م وتفسير روح المعاني ج٢٥ ص١٠٦ دار إحياء التراث العربي بيروت

51) مغني اللبيب لابن هشام ج٢ ص٢٠

52) الإتقان ج٢ ص٨

53) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص١١٤ الطبعة الأخيرة طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر وكتاب التذكرة للقرطبي ص٤١٥ ط دار العنان بتحقيق عبد القادر عطا

54) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج٤ ص٨٣ ط دار الفكر الطبعة الأولى

55) الجامع لأحكام القرآن ج٩ ص٩٨ وجامع البيان ج١٢

56) جامع البيان ج١٢ ص٧١ والجامع لأحكام القرآن ج٩ ص٩٩ وغرائب القرآن على هامش جامع البيان ج١٢ ص٧٩ وتفسير ابن عطية(المحرر الوجيز) ج٧ ص٤٠ ط الأولى على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد في الدوحة رمضان ١٤٠٤هـ يونيو ١٩٨٤م وتفسير ابن جزي ج٢ ص٢١٤

57) انظر مصطلح الحديث ورجاله للأستاذ الدكتور/ حسن الأهدل ص١٢٦ الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٣مم مكتبة الجيل الجديد صنعاء

58) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٨٥ – ٤٨٦وصحيح مسلم ج١ ص٩٥ ط عيسى البابي الحلبي وشركاه

59) صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٣٠ وصحيح مسلم ج٢ ص٥٣٧ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، والترمذي حديث رقم٣١٥٦ والنسائي في السنن الكبرى في كتاب التفسير قوله تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة) الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م مكتبة الرشد حديث رقم ١١٢٥٤ ورقم ١١٢٥٥ ، وابن ماجه حديث رقم ٤٣٢٧

60) إنظر المرجع السابق وتفسير ابن عطية ج٧ ص٤٠٥

61) الترغيب والترهيب ج٤ ص٥٦٥ مع تعليق محمد عمارة ط مصطفى البابي الحلبي

62) رواه أحمد واللفظ له والترمذي والبزار والطبراني في الأوسط وابن حبان في صحيحه وانظر المرجع السابق

63) الأعراف آية ٤٣ ، وصحيح مسلم ج٢ ص٥٣٤ باب في دوام نعيم أهل الجنة ط عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

64) انظرها ص١١٤ وشرح العقائد العضدية لجلال الدين محمد بن أشعر الصديقي الروائي مع حاشية الكلنبوي ج٢ ص٢٦٨ ط دار سعادت ١٣١٦هـ والمسايرة في العقائد المنحية في الآخرة للكمال بن الهمام ص٤٨٧ والإبانة ص١٦٣ المضمنة في كتاب تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري

65) فيض القدير على الجامع الصغير شرح المناوي ج١ ص١٥٣ ط الأولى ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م مطبعة مصطفى محمد .

66) الشفاء للقاضي عياض ج٢ ص١٨١- ١٨٢ ط شركة الأرقم بن أبي الأرقم بيروت لبنان .

67) الشفاء ج٢ ص٨٢ فقد نقلت عنه ببعض التصرف وتفسير النسفي ج١ ص٦٦ ط دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان

68) غرائب القرآن للنيسابوري ج١ ص٣٥٣ على هامش جامع البيان للطبري .

69) تفسير ابن عطية ج١ ص٤٢٠- ٤٢١

70) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ص١٤١ ط عيسى البابي الحلبي

71) الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص٥٠ الطبعة الثانية دار الكتاب العربي للطباعة والنشر

72) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج٤ ص٣٤٣

73) روح المعاني ج١ ص٣٤٣

74) انظر شرح العقائد العضدية لجلال الدين الصديقي ج٢ ص٢٢٥ ط دار سعادت ١٣١٦هـ والفقه الأكبر ص١٠٧ وغرائب القرآن ج١ ص٢١٥ على هامش جامع البيان وجامع البيان ج١ ص١٥٨ و ١٦٢ وروح المعاني ج١ ص٢٢١ وشرح الطحاوية ص٣٣٧

75)الشفاء للقاضي عياض ج٢ ص١٦٧- ١٦٨ ص١٧٥ ، وحاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص١١٥ والمحرر الوجيز ج١٠ ص١٠٤ وقصص الأنبياء للنجار ص١١ الطبعة الثالثة دار إحياء التراث العربي وروح المعاني ج٦ ص٢٧٤ .

76) إنظره ج٤ ص٣- ٤ ط دار الفكر .

77) الجامع لأحكام القرآن ج٧ص٢٥

78) مثاله ما رد علماء المسلمين على الفلاسفة الزاعمين قدم العالم لأنه أثر القديم بقولهم العالم غير قديم ثم أقاموا الدليل على ذلك بقولهم : لأنه متغير بالانعدام ونحوه من أنواع التغير وكل ما هو كذلك فليس بقديم وينتج العالم ليس بقديم ، وهذه النتيجة عين نقيض الدعوى أو قولهم : العالم متغير وكل متغير حادث وبإسقاط الحد الوسط ينتج العالم حادث وهو قياس من الشكل الأول عند المناطقة . إنظر آداب البحث والمناظرة للشنقيطي ص٦٠- ٦١ .

79) انظر تفسير القرطبي ج٧ ص٢٥- ٢٧ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج٥ ص٢٦١ .

80) روح المعاني ج٧ ص١٩٨ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت

81) إنظره ج٢ ص٢٠ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان

82) انظر الشفاء ج٢ ص١١٨ ط دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان

83) إنظره ج٧ ص١٧٦ على هامش جامع البيان

84) غرائب القرآن للنيسابوري ج٧ ص١٧٥ على هامش جامع البيان وكتاب الشفاء للقاضي عياض ج٢ ص١١٨ وجامع البيان ج٧ ص١٦٤

85) روح المعاني ج٢٣ ص٢٠٦

86) قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص٣٦٨- ٣٦٩ المكتبة الإسلامية بيروت ـ لبنان

87) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٧٧ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

88) انظر نور الظلام شرح عقيدة العوام للسيد أحمد المرزوقي ص١١ ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٥هـ .

89) الدر المنثور المجلد السابع ص١٥٦

90) انظر تقريب التهذيب ج٢ ص٣٦١ .

91)تهذيب التهذيب ج١١ ص٣٠٩ .

92)تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٣١ .

93) رواه مسلم في باب فضيلة الإمام العادل ج٢ ص١٢٤ والنسائي في السنن الصغرى في فضل الإمام العادل ج٨ ص١٢١

94) المرجع السابق ص٣٢ .

95) الشفاء بالتعريف بحقوق المصطفى ج٢ ص١٦٩

96) كشف الخفاء ج١ ص٣٥٧

97)الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبي شهبه ٢٦٥- ٢٦٩

98) تفسير النسفي ج٤ ص٣٨ الناشر دار الكتاب العربي - بيروت لبنان

99) تفسير القرطبي ج١٤ ص١٨٩- ١٩٠ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧م – ١٣٨٧هـ .

100) تفسير القرطبي ج٤ ص١٣٠- ١٣١ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . القاهرة

101) الدر المنثور ج٣ ص٢٥٩ ط دار الفكر

102) تفسير ابن عطية ج٣ ص٢١٠- ٢١١

103) فتح القدير ج١ ص٣٥٩ والدر المنثور ج٣ ص٢٥٨

104) روح المعاني ج٤ ص٢١٨

105) تفسير ابن عطية ج٤ ص٢٦٠- ٢٦٢ ، والدر المنثور ج٢ ص٦

106) روح المعاني ج١١ ص١٧١

107) ج ١ ص٥٢٦

108) تفسير ابن جزي ج١ ص١٤٩ وسنن الترمذي حديث رقم ٣٤٢٢ وسنن أبي داود كتاب الدعوات باب الذكر والدعاء في الصلاة

109) الدرر المنثور للسيوطي ج٢ ص ، وتفسير ابن كثير ج١ ص٥٢٨ ومسلم ج٢ كتاب البر والصلة ص٤٢٧- ٤٢٨ والبخاري في كتاب المرضى حديث رقم ٥٦٤١ وسنن الترمذي حديث رقم ٩٦٦ .

110) فتح الباري ج١ ص١٠٨

111) شرح إضاءة الدجنة لمحمد عليش ص١٢٥ على هامش شرح السنوسية الكبرى له أيضاً المطبعة المصرية سنة ١٣٠٤هـ

112) جوهرة التوحيد مع شرحها لعبد السلام بن إبراهيم المالكي ص١٦٤ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م

113) شرح مقدمة زبد ابن رسلان المسمى مواهب الصمد في حل ألفاظ الزبد ص٩ على هامش غاية البيان مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه